العزلة وأثرها فى الأجناس

للأستاذ مصطفى بعيو الطرابلسى

يهتم الجغرافيون بدراسة مناطق العزلة لأهميتها فى الدراسات الجنسية ذلك لأن الأجناس البشرية مهما كانت تابعة لنوع واحد فإنها لاتخلو من وجود اختلاف بين الأفراد . فإذا عزلنا مجموعة خاصة من النوع البشرى فى إقليم منفصل وتركنا هذه المجموعة فى عزلة تامة عما يجاورها لحد ما فلا بد لها بسبب هذه العزلة أن تكتسب صفات جديدة غير موجودة فى المجموعة التى اقتطعت منها ثم تقوى هذه الصفات بمضى الزمن واستمرار العزلة حتى يأتى وقت نرى فيه تكوين جنس جديد فى هذا الإقليم المنعزل وعلى هذا الأساس يظن بعض العلماء أن الأجناس الثلاثة من سوداء إلى بيضاء وأخرى صفراء قد تكون كل منها فى عزلة عن الآخر بهذا الشكل . وتعرف هذه المناطق التى تتكون بها الصفات الجنسية بمناطق التكوين Area og chonactenisetien لهذا يجب أن تكون منطقة التكوين إقليما منعزلاً إلى حد كبير ومثل هذه الجهات يقصدها الإنسان إما بالصادفة أو للبحث عن الرزق ثم يظل بها زمناً طويلا يكتسب فيها بحكم العزلة والبيئة الجديدة وما تتطلبه من حياة خاصة صفات جديدة تصبح فيما بعد من مميزاته الخاصة .

والإنسان بطبيعته شديد الرغبة فى الانتقال وقد ساقته هذه الرغبة إلى الانتقال لغير موطنه وترتب على ذلك خلط بين الأفراد ونشأة أجناس وانقراض أجناس أخرى ، وقد اشتد الخلط خصوصاً فى العصور الحديثة بدرجة تعذر معها الحصول على فرد يمثل جنساً معيناً مع علمنا بأن هذا الجنس موجود فى مكان خاص وذلك لأن الصفات الجثمانية لا تتوفر فى شخص واحد وإنما توجد موزعة بين الأفراد جميعاً ، ولهذا ففكرة وجود جنس نقى تماماً تكاد تكون خيالية حتى فى الجهات البعيدة المنعزلة . فمثلا جزر الأندمان Andaman التى يظن أنها تقطن بأنقى الأجناس قد وجد فى ثقافتها ما يدل على اختلاطها ولا يستبعد أن يكون هذا الاختلاط الثقافى قد حمل معه اختلاطاً جنسياً . والإنسان بطبيعته كسول فهو يتفادى المناطق التى لا يجد فيها راحته ولا يلجأ إليها إلا مضطراً ، لذلك كانت الموجات الجديثة تطرد أمامها دائماً الموجات القديمة إلى الجهات السحيقة الغير محبوبة ، ولهذا يمكن القول أن سكان مناطق الأطراف أو العزلة يمثلون أقدم العناصر بالنسبة لما يحيط بها .

وهناك فرق بين المناطق المعزولة والمناطق العازلة ، فمثلا سهل المجر تحيط به جبال فهو منطقة منعزلة ، وأما الجبال نفسها فهى مناطق عازلة . إذن فمنطقة العزلة إقليم وعوامل العزلة ظاهرات تضاريسية أو مناخية أو نباتية أو مائية ، فبرودة المناخ فى أقصى شمال أوربا جعلت قبائل اللابس Lapps فى حالة قريبة من العزلة وتعزل الجبال الأجناس بعضها عن بعض حتى إن الجبل الواحد يعزل على كل من جانبيه جنساً خاصاً يتكلم لغة خاصة كما هى الحال فى سويسرا أضف إلى هذا أن الجبال كذلك تعتبر ملاجىء للأجناس الهاربة إذ تجد فيها مأوى تلجأ إليه إذا استهدفت لأى خطر يهددها بعكس السهول فهى تساعد على الاندماج بين الأجناس إذا تعددت لانبساطها . أما الغابات الاستوائية فى وسط أفريقيه فهى ملجأ الأقزام بعد أن كانوا يشغلون كل أفريقية الاستوائية من المحيط الأطلسى إلى الساحل الشرقى المطل على المحيط الهندى بدليل وجود بقاياهم فى المناطق الشرقية ، ولكنهم لجأوا إلى هذه الغابات على أثر موجات الحاميين التى أخذت تفد على أفريقيه عن طريق باب المندب دافعة أمامها العناصر الزنجية إلى مناطق العزلة حيث الغابات الاستوائية كما طردتها إلى الجنوب ومن هناك إلى صحراء كلهارى حيث نجد بعض عناصر من جماعات البوشمن Bushmen السائرة فى طريق الإبادة ، وقد كانت جماعات الهوتنتون أول من طردهم ، ثم تلتهم جماعات البانتو ، حتى إذا ما جاء الأوربيون إلى تلك الجهات فى القرن السابع عشر زادوا فى إبادتهم وساعد على ذلك أن شعب البوشمن لم يستطع التكيف بالظروف الجديدة .

ونظراً لأن الهجرات البشرية فى أفريقية قد اتخذت طريقها من الشرق إلى الغرب ، لذلك كانت مناطق العزلة غرب القارة كما توجد أعقد المناطق الجنسية هناك ، وهذا ما نلاحظه أيضاً فى أوربا حيث أن تيار الهجرات قد اتخذ طريقه من الشرق إلى

الغرب عن طريق السهل الأوربي الشمالي الذي يقع بين مرتفعات في الجنوب وأخرى في الشمال فلا تجد الهجرات أسهل من هذا الطريق عند انتشارها على هيئة موجات من الشرق إلى الغرب ولذا كان هذا السهل طريقاً للغزوات في مختلف عصور التاريخ ولا يزال إلى الآن مسرحاً للحروب والقتال ، ومما ساعد على تكرار هذه الغزوات أنه لا توجد حدود طبيعية تفصل بين أجزاء هذا السهل ، وأصبح من الصعب تحديد الحدود بين دوله المختلفة . وإذا كان مظهر تيار الهجرات في أفريقيا قد اختلف في شكله عما هو في أوربا ، فذلك راجع إلى طبيعة المنطقة التي تصل شرق القارة الأفريقية بغربها ، حيث الغابات بمسالكها الصعبة مما دفع الهجرات إلى الدوران حول هذه المنطقة إما عن طريق الجنوب أو عن طريق الشمال فخففت هذه الدورة من حدة الهجرات وجعلت بينها فترات منتظمة ساعدت على هضم بعضها فلم تكتسب ذلك المظهر الحربي الدموي الذي نطالعه في التاريخ الحبشي لقارة أوربا .

وعند دراستنا لأثر الحاميين الشماليين في زنوج السودان الغربي نجده أقل ما يكون في منطقة الغابات الساحلية ، لأنها لا تشجع العناصر الحامية على سكناها وإذا كان الدين الإسلامي نتيجة لذلك قد أخذ ينتشر في الأجزاء الشمالية من السودان الغربي فإن البعثات التبشيرية الأوربية قد انتهزت هذه الفرصة ، وأخذت تغزو هذا الإقليم من الجنوب حيث يزاحمها الإسلام هناك ويظهر كذلك في مدى انتشار الدين الإسلامي في المنطقة التي حول بحيرة تشاد إذ نجد هناك بعض قبائل وثنية استطاعت أن تحتفظ بشخصيتها في مناطق المستنقعات على الرغم من تأثير الإسلام في السودان الأوسط ، وما ذلك إلا لأن هذه المستنقعات ما هي إلا مناطق عزلة قد لجأت إليها هذه القبائل . أما في منطقة السودان الشرقي فنجد جماعات النوبا تسكن في التلال الواقعة في كردفان والظاهر أنها كانت تسكن السهول أولا ، ثم طردتها القبائل العربية النازية إلى مكانها الحالي وبفضل منطقة السدود استطاعت قبائل النوبة في جنوب السودان المصري أن تقاوم الأثر الحامي الذي يظهر بوضوح في قبائل الشلوك الساكنة بين النيل الأبيض وبحر الجبل .

أما الواحات فيمكن اعتبارها مناطق عزلة لحدودها الطبيعية التي يصعب على كل أحد أن يصل إليها ، لذا فهي تمثل عناصر نقية إلى حد كبير ، وهذا سبب ما نراه في بعض الواحات من عادات ولغات خاصة كما هي الحال في واحة « سيوة » بمصر وواحتي « زلة » و « جالو » في لوبيا . ولكن يجب ألا ننسى أن هذه الواحات كثيراً ما تستخدم محطات لطرق القوافل بين الساحل الأفريقي الشمالي والسودان جنوباً فساعد ذلك على وصول بعض عناصر جديدة إلى هذه الواحات تركت بلا شك أثرها في السكان الأصليين فضلا عن أن أهل البادية كثيراً ما يغزون هذه الواحات ويشاركون أهلها في معيشتهم عند جدب أراضيهم فيختلطون بأهلها ويؤثرون فيهم .

وإذا بحثنا عن مناطق العزلة في أوربا وجدناها قليلة بالنسبة إلى ما هي عليه في أفريقية ، وكثيراً ما تكون مناطق العزلة في أوربا نتيجة للسلاسل الجبلية التي تعوق اندماج العناصر . ومن الأمثلة على ذلك جماعة الباسك التي تسكن على جانبي جبال البرانس في أسبانيا وفرنسا حول خليج بسكاي ، وهم يكونون شعباً خاصاً لا تؤثر فيه الأقسام السياسية ولا الطبيعية ، ولذلك يعلل بعض العلماء وجودهم بأنهم بقايا لأجناس كانت تسكن شبه جزيرة إيبيريا وفرنسا ، ثم طردتها عناصر شمالية وأخرى جنوبية إلى هذه المنطقة التي تحتلها الآن . وتتكلم جماعات الباسك لغة خاصة بها ليست متصلة باللغات الآرية ، ولا تزال تحتفظ بعاداتها الخاصة أيضاً . غير أنه يلاحظ أن جماعات الباسك في أسبانيا تسير في طريق الانقراض نظراً لاختلاط الأسبان بهم ، وربما كان هذا لازدحام المناطق بالسكان الذين اندفعوا إلى جهـــات الباسك لاستغلالها بعكس ما عليه الحال في فرنسا .

وتبدو آثار العزلة واضحة في أهالي الجزر البريطانية لتطرف موقعها ، ولذلك وصلتها موجات الهجرة متأخرة ، وليس معنى هذا أن الموجات المختلفة قد صعب عليها الوصول إلى الجزر البريطانية ، فالبحر الذي يفصلها عن بقية القارة ليس عميقاً أو متسعاً ، بل كان في الواقع عامل ربط أكثر منه عامل فصل . ولكن رغم كل هذا فموقعها المتطرف خصوصاً الأجزاء الغربية منها وجزيرة إيرلنده قد أعطاها ما يلائم حالة العزلة كما أن طبيعة